

## تيار الاستشراق العكسي واستخدام الدراسات الشرقية ضد الاستشراق إيهاب زعقوق

رابط التعريف الرقمي (DOI) [10.47288/TWCJ.2022.V07.ISS13.A04](https://doi.org/10.47288/TWCJ.2022.V07.ISS13.A04)

### الملخص

إن ما يقدمه تيار الاستشراق العكسي Counter-Orientalism من استخدام الدراسات الشرقية كأداة طرح مضاد للاستشراق كما قدمه إدوارد سعيد والعديد من الباحثين على مدار العقود الماضية ، يقودنا إلى ضرورة دراسة الأبعاد التاريخية والسياسية والمعرفية لعمليات الاستشراق والدراسات الشرقية ومحاولة رصد تأثيرات تلك العملية على كلا الجانبين في الشرق والغرب ، وهو ما يتطلب دراسة موضوعية مركبة ومتعددة التخصصات لرصد جميع مناحي هذا التأثير. ويلقي هذا المقال الضوء على بعض النقاط الفاصلة في تاريخ الاستقطاب الغربي - الشرقي والتي ساهمت في نشأة وتطور الدراسات الشرقية وبالتالي الاستشراق بما يحمله من جوانب وأهداف مختلفة ، تلك النقاط الفاصلة لم تكن مرتبطة بتأثير في اتجاه منفرد بل كان لها تأثيراً متبادلاً في كلا الاتجاهين واشتركت جميعها أنها مبنية على قرارات واعية ومقصودة لتخدم أهدافاً محددة.

### الكلمات الدلالية

الاستشراق ، الدراسات الشرقية ، الاستشراق العكسي ، الاستقطاب ، السيطرة الثقافية ، الهلينة ، الإمبراطورية الرومانية ، اللغات الشرقية ، حركات الترجمة ، السريان ، الحملات الصليبية ، الاستشراق الفرنسي ، عصر التنوير ، عصر الاستكشاف ، الحركات الاستعمارية الأوروبية

إن الطروحات التي قدمها إدوارد سعيد عن عملية الاستشراق وإصداره لكتابه الذي حمل ذات الاسم ، أثار في الغرب تياراً فكرياً معاكساً يهدف إلى دحض ما طرحه سعيد عن العلاقة بين دراسة الشرق أو ما يُطلق عليه "الدراسات الشرقية" وخدمة الأغراض الاستعمارية التوسعية لأوروبا ، ويأتي على رأس هذا التيار الفكري المضاد المؤرخ البريطاني الأمريكي برنارد لويس (Bernard Lewis) الذي قدم مراجعته لكتاب إدوارد سعيد سنة 1982 منتقداً فيها بلهجة شديدة ما قدمه سعيد من طرح بأنه أدى إلى شيطنة كل من ساهم في دراسة الشرق وأن المصطلح الجديد للاستشراق كما قدمه سعيد وغيره من الباحثين هو "مصطلح تم تسميمه بتلوث فكري"<sup>1</sup> وعمل الباحثون في هذا التيار الفكري المضاد - أو ما يعرف بتيار الاستشراق العكسي (Counter-Orientalism) - على دحض ما قدمه سعيد عبر اثبات نقطتين رئيسيتين أولهما أن ما قام به الباحثون والرحالة الغربيون من دراسات لبلاد شرق المتوسط وآسيا ما كانت إلا دراسات علمية موضوعية هدفها الرئيس زيادة المعرفة وتطوير علوم الحضارة الغربية ، وثانيهما أن ما طرحه إدوارد سعيد ما هو إلا تشويه لصورة الغرب والكم الهائل من الدراسات التي قام بها الرحالة والباحثون الغربيون مع نهاية القرن الثامن عشر وخلال القرنين التاسع عشر والعشرين.

ويرى هذا التيار الفكري المضاد أن ما قام به الأوروبيون من دراسات الشرقية له أثر واضح على الثقافة والحضارة الغربية ، وأن طرح سعيد خلق العديد من المراجعات لدى الباحثين الغربيين عن نتاج مراحل دراسات الشرق ومدى تأثيرها بالحركات الاستعمارية الأوروبية للشرق ، وفي هذا الصدد يطرح توماس لامار (Thomas Lamarre) تساؤلاته عما إذا كان الاستشراق حالة من التحريف الممنهج لثقافة منطقة محددة ، أو أنه عملية إنسانية فطرية من تعريف إثني للآخر ، أم إنه تشكيل تاريخي للمعرفة ضمن اطار قوة مهيمنة<sup>2</sup> والإجابة عن تلك التساؤلات تتطلب عملية معقدة من الدراسة الموضوعية المركبة والمتعددة التخصصات لمعرفة وتحديد أوجه تأثير الاستشراق والدراسات الشرقية على الشرق والغرب في مختلف المجالات وكذلك دراسة الأبعاد المتنوعة لهذه العملية.

في حقيقة الأمر إن الدراسات الاستشراقية مرت عبر التاريخ بمراحل عديدة من التطور والتشكيل الواعي وغير الواعي ، وأثرت تلك المحطات في تشكيل الاستشراق وكذلك أثارت حالة الاستقطاب بين الشرق والغرب. يرى العديد من الباحثين في مجال الاستشراق أن الاستقطاب بين الشرق والغرب ليس بحالة حديثة العهد ، بل يعود بها الدارسون إلى بدايات القرن الخامس قبل الميلاد مع اندلاع الصراع الإغريقي الفارسي كأول صراع قوى إقليمي

<sup>1</sup> Lewis, Bernard. The Question of Orientalism. *The New York Review of Books*. June 24, 1982, Vol. 29, 11.

<sup>2</sup> *Multilingual Address and Counter-Orientalist Practice*. Lamarre, Thomas. 1, Lyon : Institut d'Etudes Transtextuelles et Transculturelles, 2006, Transtext(e)s Transcultures 跨文本跨文化, pp. 56-57.

عالمي والذي انتهى باجتياح الأخمينيون للدويلات الإغريقية<sup>3</sup> ويعتقد البعض أن فترة هذا الصراع شهدت اللبنة الأولى لما يُعرف بالدراسات الشرقية ، وذلك لما قام به العديد من الكتاب والمؤرخون الأثينيون على دراسة الثقافة الفارسية وتأثيراتها في ثقافات أثينا وليديا وإيونيا ، وعلى الرغم من الاحتلال الفارسي لليونان ، يرى المؤرخ **جاك بالسير (Jack Balcer)** أن الإغريق ساهموا بشكل كبير في تطور الحضارة الفارسية حيث انتقل العديد من الحرفيين والمعماريين والفنانين والفلاسفة والأطباء والرياضيين إلى الخدمة في البلاط الأخميني وكانت لهم مساهماتهم البارزة في الحضارة الفارسية.<sup>4</sup>

ومع الفتوحات التي قام بها الاسكندر المقدوني وغزوه للإمبراطورية الفارسية بولاياتها المختلفة وتأسيسه لإمبراطوريته الهلنستية بدأت عملية ممنهجة من فرض الثقافة اليونانية على جميع الولايات من خلال ما يعرف تاريخياً بعملية "**الهليانة (Hellenization)**". تضمنت هذه العملية فرضاً للغة اليونانية كلغة رسمية في جميع مناطق الإمبراطورية وكذلك تم تغيير أسماء المدن المختلفة لتتخذ اسماً يونانياً بدلاً عن الاسم الأصلي للمدينة ، كما تم أيضاً التأثير على الديانات والعادات الحياتية للشعوب ، وهو ما نتج عنه تغيرات جذرية في ثقافات بعض الشعوب ومحو لثقافات بعض آخر.<sup>5</sup> وقد استمرت عملية الهليانة من بعد وفاة الاسكندر مع ورثة امبراطوريته من الممالك الناشئة مثل الدولة البطلمية والسلوقية ، وحتى توسع الإمبراطورية الرومانية في الشرق والتي لم توقف أو تعكس هذه العملية الممنهجة بل استمرت مع انقسام الإمبراطورية الرومانية حيث انسحبت الإمبراطورية الشرقية - البيزنطية - مرة أخرى إلى اليونانية بينما احتفظت الإمبراطورية الغربية في روما بأصولها اللاتينية وهو ما أدى إلى فجوة ثقافية وعلمية سوف يظهر تأثيرها في المراحل اللاحقة.<sup>6</sup>

بعد انتشار المسيحية وتحديداً مع نهاية القرن الرابع الميلادي ، نشأت حركة واسعة للترجمة العلمية والمعرفية من اليونانية إلى السريانية قام عليها الرهبان والباحثون السريان الشرقيون ، وتخصصت هذه الحركة في ترجمة ثلاث أنواع من المعارف أولها دراسات الكتاب المقدس وثانيها دراسات الأباء اللاهوتية وأخرها العلوم والمعارف الدنيوية لتشمل الطب والفلسفة والأدب واستمرت هذه الحركة العلمية على مدار خمسمائة عام حتى نهاية القرن

<sup>3</sup> *Athens and the Achaemenid Persian Empire in 508/7 BC: Prologue to the Conflict.* Rung, Eduard. 3, Rome : MCSER Publishing, May 2015, Mediterranean Journal of Social Sciences, Vol. 6, pp. 257-262. 2039-2117.

<sup>4</sup> *The Greeks and the Persians: The Processes of Acculturation.* Balcer, Jack Martin . 3, s.l. : Franz Steiner Verlag, 1983, Historia: Zeitschrift Für Alte Geschichte, Vol. 32.

<sup>5</sup> Hornblower, Simon, Spawforth, Antony and Eidinow, Esther, [ed.]. *The Oxford Companion to Classical Civilization.* 2nd. Oxford : Oxford University Press, 2014. pp. 359-362. 9780198706779.

<sup>6</sup> Baynes, Norman Hepburn. *The Byzantine Empire.* London : Oxford University Press, 1946.

التاسع الميلادي<sup>7</sup> ومع منتصف القرن الثامن الميلادي ظهرت حركة الترجمة إلى العربية في عصر الدولة العباسية والتي استمرت حتى منتصف القرن الثالث عشر ، واعتمدت هذه الحركة بشكل أساسي على الترجمات السريانية للعلوم اليونانية وأصبحت اللغة السريانية وسيطاً بين اللغتين العربية واليونانية ، وكذلك تمت ترجمة أعمال من اللغات السنسكريتية والفارسية ، وساهمت هذه الفترة في انتقال كم هائل من المعارف والعلوم إلى اللغة العربية والشرق وكذلك ترجمة العديد من المخطوطات اليونانية الضائعة والتي لم يتبقى منها سوى الترجمة السريانية.<sup>8</sup>

وخلال القرن الثالث عشر ومع انبساط سلطة كنيسة روما وقيام الحملات الصليبية على المشرق العربي ، قرر الفاتيكان تأسيس مدرسة لتعلم اللغات الشرقية (**Studia Linguarum**) وأسست أول مدرسة لدراسة اللغة العربية على يد الرهبان الدومينيكان واتخذت مدينة تونس مقراً لها ، وأمر الفاتيكان بعد ذلك بتأسيس مدارس للغات الشرقية في اسبانيا وبالفعل أسست مدارس في برشلونة ومرسية وفالنسيا وختافة ولكن معظم تلك المدارس لم تستمر ، ومع بدايات القرن الرابع عشر ومع عقد مجمع فيبين في فرنسا سنة 1311 م أصدر المجمع قراره بإنشاء مراكز لدراسة اللغات الشرقية كالعبرية والعربية والآرامية والسريانية ، وذلك في عدد من الجامعات الأوروبية وهي باريس وروما واكسفورد وبولونيا وسلامنكا ولكن هذا القرار لم يدخل حيز التنفيذ إلا في القرن السادس عشر حيث أسست فرنسا كرسي للعبرية في 1530 م وتبعها كامبريدج في 1540م وأكسفورد في 1546 م ، وكان الهدف الرئيسي من تأسيس تلك الكراسي العلمية هو دراسة العلوم اللاهوتية والديوية وسد فجوة الترجمات إلى اللاتينية الناتجة عن انفصال الإمبراطورية الرومانية سابقاً.<sup>9</sup>

مع توسع الإمبراطورية العثمانية وتحولها إلى قوة إقليمية نافذة في القرن السادس عشر ، سعى العثمانيون في عهد سليمان القانوني إلى تأسيس تحالف مع الفرنسيين ، وبالفعل تم إرسال بعثتين عثمانيتين إلى فرنسا في سنتي 1533 و 1534 م ، وفي العام 1536 م أرسلت أول بعثة فرنسية إلى الامبراطورية العثمانية وكان من ضمن أعضائها **جيوم بوستيل (Guillaume Postel)** الذي يعتبر أول مستشرق فرنسي ، وكانت مهمة بوستيل الأساسية هي احضار الكتب والمخطوطات النادرة إلى المكتبة الملكية الفرنسية ، وخلال اقامته في القسطنطينية تعلم بوستيل اللغتين العربية والتركية وهو ما أهله إلى ترأس كرسي اللغات الشرقية في الكلية الملكية الفرنسية (**Collège Royal**) عند عودته إلى فرنسا سنة 1539 م ، وتبع ذلك في سنة 1547 م إرسال بعثة فرنسية أخرى إلى

<sup>7</sup> **Brock, Sebastian P.** Greek, Syriac translations from, . *Gorgias Encyclopedic Dictionary of the Syriac Heritage*. [Online] Beth Mardutho, 2011. [Cited: February 4, 2022.] <https://gedsh.bethmardutho.org/Greek-Syriac-translations-from>.

<sup>8</sup> **Teule, Herman G. B.** Arabic, Syriac translations from, . *Gorgias Encyclopedic Dictionary of the Syriac Heritage*. [Online] Beth Mardutho, 2011. [Cited: February 4, 2022.] <https://gedsh.bethmardutho.org/Arabic-Syriac-translations-from>.

<sup>9</sup> **McCabe, Ina Baghdiantz.** *Orientalism in Early Modern France: Eurasian Trade, Exoticism, and the Ancien Régime*. Oxford : Berg, 2008. 9781845203740.

الإمبراطورية العثمانية ضمت عدداً من العلماء في مختلف التخصصات ويعتقد أن لتلك البعثة أثراً كبيراً على تطور العلوم والمعارف الطبيعية والسياسية في فرنسا.<sup>10</sup>

واستمرت حركة الترجمات من العربية إلى اللغات الأوروبية خلال القرنين السابع عشر والثامن عشر لتشهد أوروبا تطوراً ملحوظاً في العلوم فيما عُرف بعصر التنوير أو الثورة العلمية والذي نتج عنه العديد من الاستكشافات في العلوم الطبيعية المختلفة مثل الرياضيات والفلك والفيزياء والجغرافيا وشهد كذلك تطوراً في العلوم الإنسانية والسياسية<sup>11</sup> وهو ما عاصر الموجات الأولى من الاستعمار الأوروبي في العالم ، شرقاً حيث الهند وجنوباً في أفريقيا وغرباً في الأمريكيتين ، ومع النصف الثاني من القرن الثامن عشر شهد الشرق قدوم العديد من البعثات العلمية إلى الداخل الآسيوي والأفريقي واستمرت هذه الحملات الاستكشافية التي مهدت إلى الاستعمار أحياناً أو عملت تحت حمايته ورعايته أحياناً أخرى<sup>12</sup> ولعل واحدة من أقدم تلك الحملات هي الحملة الدنماركية إلى مصر والجزيرة العربية والشام في الفترة من 1761 إلى 1767 م والتي كانت بعثة علمية مكونة من ستة علماء قدموا إلى المنطقة بتكليف من ملك الدنمارك فريدريك الخامس ، ولم تحمل تلك البعثة أي أغراض سياسية أو اقتصادية بل هدفت إلى استكشاف الأماكن المقدسة بالإضافة إلى دراسة اثنية وجغرافية لسكان المنطقة.<sup>13</sup> وعلى العكس من ذلك أتت الحملة الفرنسية على مصر من 1798 حتى 1801 م وملحق بها بعثة علمية تهدف إلى مساعدة الأهداف الاستعمارية النابليونية من خلال الدعاية بحمل بونابرت لمشاعل التنوير الأوروبية إلى الشرق ، ونتج عنها إصدار موسوعة وصف مصر الشهيرة التي قدمت رسداً شاملاً للجوانب الحياتية المختلفة في مصر.<sup>14</sup>

وختاماً ، فإن الرصد السابق لبعض مراحل تطور الدراسات الشرقية يعرض مدى التنوع في الأهداف التي حملتها تلك الدراسات المكثفة للشرق ، فمنها ما حمل أغراضاً معرفية بحثية ومنها ما خدم أغراضاً استعمارية عن عمد أو غير عمد ومنها ما خدم أغراضاً تجارية واقتصادية ، وعلى أي حال لا يمكن اخراج تلك الدراسات من سياقها السياسي أو التاريخي أو المعرفي لأن تجاهل أي من تلك المتغيرات سوف يؤثر بالضرورة على محاولات قياس التأثير الناتج عن تلك الدراسات الشرقية على كلا الجانبين في الشرق والغرب.

<sup>10</sup> McCabe, Ina Baghdiantz. *Orientalism in Early Modern France: Eurasian Trade, Exoticism, and the Ancien Régime*. Oxford : Berg, 2008. 9781845203740.

<sup>11</sup> *Enlightenment in Global History: A Historiographical Critique*. Conrad, Sebastian. 4, s.l. : Oxford University Press, September 21, 2012, The American Historical Review, Vol. 117, pp. 999-1027. 1937-5239.

<sup>12</sup> والي، طارق، شاهين، شيماء و موسى، منى. القاهرة بألوان المستشرقين .. شاهد على العمران . القاهرة : مركز طارق والي العمارة والتراث، 2022.

<sup>13</sup> Vermeulen, H. F. *Early history of ethnography and ethnology in the German enlightenment : anthropological discourse in Europe and Asia, 1710-1808*. Leiden : Leiden University, 2008.

<sup>14</sup> والي، طارق، شاهين، شيماء و موسى، منى.

المراجع

- *The Greeks and the Persians: The Processes of Acculturation*. **Balcer, Jack Martin** . 3, s.l. : Franz Steiner Verlag, 1983, Historia: Zeitschrift Für Alte Geschichte, Vol. 32.
- **Baynes, Norman Hepburn**. *The Byzantine Empire*. London : Oxford University Press, 1946.
- **Brock, Sebastian P**. Greek, Syriac translations from,. *Gorgias Encyclopedic Dictionary of the Syriac Heritage*. [Online] Beth Mardutho, 2011. [Cited: February 4, 2022.] <https://gedsh.bethmardutho.org/Greek-Syriac-translations-from>.
- *Enlightenment in Global History: A Historiographical Critique*. **Conrad, Sebastian**. 4, s.l. : Oxford University Press, September 21, 2012, The American Historical Review, Vol. 117, pp. 999-1027. 1937-5239.
- **Ferguson, John**. Hellenistic age. *Encyclopædia Britannica*. [Online] Encyclopædia Britannica, Inc., October 7, 2016. [Cited: February 5, 2022.] <https://www.britannica.com/event/Hellenistic-Age/Hellenistic-civilization>.
- **Hornblower, Simon, Spawforth, Antony and Eidinow, Esther, [ed.]**. *The Oxford Companion to Classical Civilization*. 2nd. Oxford : Oxford University Press, 2014. pp. 359-362. 978-0-19-870677-9.
- *Multilingual Address and Counter-Orientalist Practice*. **Lamarre, Thomas**. 1, Lyon : Institut d'Etudes Transtextuelles et Transculturelles, 2006, Transtext(e)s Transcultures 跨文本跨文化, pp. 56-57.
- **Lewis, Bernard**. The Question of Orientalism. *The New York Review of Books*. June 24, 1982, Vol. 29, 11.
- **McCabe, Ina Baghdiantz**. *Orientalism in Early Modern France: Eurasian Trade, Exoticism, and the Ancien Régime*. Oxford : Berg, 2008. 9781845203740.
- *EAST-WEST POLARIZATION AND THE CONTEMPORARY WORLD*. **Ritsch, Frederick F**. 1, 1968, Il Politico, Vol. 33, pp. 193-200.
- *Athens and the Achaemenid Persian Empire in 508/7 BC: Prologue to the Conflict*. **Rung, Eduard**. 3, Rome : MCSER Publishing, May 2015, Mediterranean Journal of Social Sciences, Vol. 6, pp. 257-262. 2039-2117.

- **Teule, Herman G. B.** Arabic, Syriac translations from,. *Gorgias Encyclopedic Dictionary of the Syriac Heritage*. [Online] Beth Mardutho, 2011. [Cited: February 4, 2022.] <https://gedsh.bethmardutho.org/Arabic-Syriac-translations-from>.
- **Vermeulen, H. F.** *Early history of ethnography and ethnology in the German enlightenment : anthropological discourse in Europe and Asia, 1710-1808*. Leiden : Leiden University, 2008.
- والي، طارق؛ شاهين، شيماء و موسى، منى . القاهرة بألوان المستشرقين .. شاهد على العمران . القاهرة : مركز طارق والي العمارة والتراث، 2022.